حقيقة السومريين بين النفي والإثبات

الدكتور محمد فهد حسين
جامعة واسط، كلية الآداب

سنعرض في هذا البحث لمناقشة احد الآراء، التي نفي وجود شعب باسم السومريين على وفق منهجية علم التاريخ القديم، وصولاً إلى ما نظن أنها الحقيقة العلمية، مع اهتمام بنقطة جوهرية، هي إننا نناقش الآراء، بعيداً عن الشخص صاحب الرأي، أي إننا ننظر إلى ما يقال، لا إلى من يقول، وعليه سنبدأ البحث بإيجاز لرأي الذي ينفي وجود السومريين ويذكر إن السومريين لم يعرفوا كشعب، وان اللغة السومرية التي وصلت إلينا هي لغة من اختراع الأكديين أنفسهم. وستكون منهجية البحث، إيراد النقطة ثم تدوين بعض الملاحظات عليها، من خلال الفقرات التالية:

أولاً. يرد في بداية الآراء التي تنفي وجود السومريين كقوم ما نصه: لم تكن الصراعات بين المجموعات البشرية المختلفة في بلاد العراق القديمة على أساس الخلافات القومية وإنما على أساس الخلافات السياسية الاقليمية.

وملاحظتنا ترى أن:

- لا يمكن الجزم أننا وجدنا كل النتاج الكتابي للعراق القديم، أو أننا قرأنا هذا النتاج كله، أو اكتشفنا كافة المواقع وبضمنها العاصمة اكد، حتى يمكن القطع في هذه النقطة. وهناك نص أدبي يعرف بأسطورة مارتو، ورد فيها حديث الكاتب السومري حول الاموريين، وهم من الأقوام الجزرية، الذين ينتمي الاكديون لهم، يمكن أن نستشف منه حالة التمايز العرقي، والفروق الثقافية بينهم وبين السومريين، إذ يرد:

المارتو الذين لا يعرفون الحبوب

المارتو الذين لا يعرفون البيت ولا المدنية

أجلاف الجبال

فالنص يتحدث عن فروق اجتماعية ، وحضارية ، وليست قومية ، ولكن عند ضم هذا النص إلى نص مسماري آخر ، يتحدث بنوع من التشفي والانتقام لمصير مدينة أكد بعد سقوطها على يد الكوتيين ، إذ يقول :

يا اكاده عسى ان تفارق أقوياؤك قوتهم فيحل بهم الوهن، وان يهلك القحط والجوع اهلك [٥].

فإذا سلمنا بنظرية انه لا يوجد شعب سومري ، وان اللغة السومرية هي اختراع اكدي ، فكيف نفسر حالة التشفي والانتقام بمصير اكد؟ ومن هو كاتب هذا النص؟ ولأي منظومة سكانية او حضاريه ينتمي، حتى يكتب حول اكد و الأكديين بهذا الأسلوب الذي يدل على أمضى حالات العداء والتشفي ، بعد قيام الملك الأكدي نرام ــ سين) بتدمير أقدس معبد في مدينة نفر) هو معبد الإله نليل) المسمى أي ــ كور [٦]. وهو عمل لم يجرؤ على القيام به أي ملك في العراق القديم ، لما لمدينة نفر وإلهها انليل من قدسية كبيرة . وجاء النص المسماري المليء بالتشفي مصير المؤلم على يد الأكديين، ليبين بكل وضوح أن كاتب هذا النص يمتاز تماما عن الأكديين، إذ يقول :

يا أنليل البطل عسى أن يكون مصير المدينة التي أحلت الدمار بمدينتك مثلها إلى الدمار وعسى أن تمتلئ الآبار بجماجم أهلها [٧]

ويرد على هذا الاستنتاج ، ن الكاتب لم يذكر بتشفيه اسم المدينة ، ولم يذكر اسم القوم بـ صورة الآتية : عسى ان يكون مصير الأكديين ." لكن السبب هو ان النظام السياسي في العراق القديم كان مبنياً على أساس دولة المدينة ، وكان نظاماً زراعياً مستقراً تفككت فيه عرى العلاقات والقرابات بين الأقوام ؛ لحساب مصالح مدنهم من ارض زراعية وقنوات ري ونظم زراعية سائد

يمكن الاستمرار بتبيان الأدلة التي تؤكد وجود قومين متمايزين ، هما السومريون والاكديون في العراق القديم من خلال الآتي :

أ. الفخار : يوجد في العراق القديم إبان الألف الثالث قبل الميلاد) نمطان متمايزان من الفخار ، فقد تميز الفخار في عصور فجر السلالات كونه متعدد الألوان ، ومرسومة عليه أشكال متعددة منها : الأشكال الهندسية كالمثلثات ورسوم السنابل وسعف النخيل [٨]. و و يدل على أن الذين قاموا بصناعته قوم كانت بيئتهم ونشاطهم زراعيين ، في أخريات الألف الثالث قبل الميلاد) وتحديداً العصر الأكدي وجد فخار تميز صورة عامة بأنه خال من أية إضافات ، أو نقوش ،

ومطلي بطبقة خفيفة من الطين السائل الخفيف ، وهذا النوع من الفخار ، يدل على أن الذين قاموا بصناعته أقوام كانت تركز على الضروريات من الحياة دون الالتفات للكماليات منها ، على الضد من نوع الفخار الأول ، الذي كان مزينا مزخرفا . وربما يكون الاختلاف في الفخار يدل على اختلاف الطرز الفنية ، وليس بالضرورة دليل على اختلاف الأقوام التي صنعته . لكن بماذا نفسر عملية الانقلاب في صناعة الفخار واختلافه بين بداية الألف الثالث قبل الميلاد) ونهايته ، و و اختلاف جاء معكوسا ، وخلافاً لحتمية التطور في مسيرة الأحداث التاريخية ، فبينما كان الفخار متقنا ومزخرفاً ومرسوماً عليه أشكال ومناظر ، فانه يتراجع فيما بعد إلى فخار بسيط خال من أية رسوم . وهذا يدل على وجود منظومتين سكانيتين مختلفتين : الأولى : منظومة زراعية مستقرة ، و خرى : منظومة بدوية مرتحلة . تتمثل الأولى بالسومريين ، والثانية الأكديين . فلو نفينا وجود السومريين بماذا نفسر الاختلاف في صناعة الفخار هنا . وما يعزز ذلك أن الفخار ومع مجيء سلالة أور الثالثة للحكم ٢١١٢ - ٢٠٠٤ ق.م) بدأ يصبح اصغر حجماً و أكثر دقة منه في الحقب السابقة[٩].

إذن لو كان الاختلاف في الفخار يعود إلى اختلاف الطرز الفنية ماذا نفسر التحول السريع في نوعية الفخار مع استلام السومريين للحكم مرة خرى زمن سلالة أور الثالثة ، وتميزه عن فخار الدولة الأكدية

ب . الأختام : تميزت أختام عصور فجر السلالات ، أنها تحوي الأسلوب ألزخرفي المعتمد على المبدأ الخيالي والخطوط الزخرفية[١٠] ، فضلا عن مشاهد الولائم والحفلات الموسيقية المقامة[١١] . بي ما تميزت الأختام الأكدية ان المشاهد المنحوتة عليها تنحو نحو الواقعية في مواضيعها . وهذا يقودنا إلى الاستنتاج السابق نفسه، اننا أمام منظومتين سكانيتين مختلفتين : الأولى زراعيه مستقر ، والثانية بدوية مرتحلة ، كما يدل على وجود قومين مختلفين أنتجا هذا الاختلاف . فلو سلمنا بصحة الفرضية التي تقول أن الأكديين قاموا باختراع الكتابة السومرية لتدوين اللغة الأكدية[١١] ، فبماذا نفسر اختلاف الطرز الفنية للفخار والأختام ؟ وبماذا نفسر تباين الموضوعات المرسومة على الفخار والأختام لقوم نفسه ؟ هذا التباين كما نرى لا يحل إشكاله سوى التسليم بوجود قومين مختلفين هما السومريين والأكديين

ثانياً . يقول الرأي الثاني حول نفي وجود السومريين : إن الصراعات والحروب المذكورة في النصوص المسمارية لم تكن ولا حتى في حالة واحدة بين السومريين والأكديين باعتبارهم يمثلون قومين مختلفين ، وإنما كانت بين مدينة وأخرى أو بين دولة مدينة وأخرى دون أن يكون لذلك علاقة بالانتماء القومي لسكان أي من المدينتين[١٢]

لكن بماذا يفسر الباحث ، الحروب التي شنها سرجون الأكدي على المدن السومرية ، وأكملها حفيده نرام ــ سين ، الذي وصل في حروبه إلى مستويات من استهداف أقدس معتقدات السومريين ، من خلال نهب مدينة نفر) وحرق معبدها ايكور . وهي حالة نادرة لم تكن حرق المعابد وانتهاك حرمتها قد ا على نطاق واسع في حروب دويلات المدن إلا مع الأقوام الأجنبية ، كما حصل من الحيثيين عندما قاموا بتدمير بابل ونهبها ، وأخذهم تماثيل مردوخ) وزوجته الإلهة سربانتيت) ١٥١٥ ق ٠ م[١٣] ، و كما حصل مع العيلاميين عندما أسروا الإله مردوخ) بعد غزوهم مدينة بابل نحو ١١٥٧ ق ٠ م) زمن ملكهم شيلاك ــ انشوشناك) ولم تسلم من التدنيس والتخريب حتى الأماكن المقدسة . و خذوا معهم تمثال مردوخ)[١٤] . بينما نلاحظ أن الحروب بين دويلات المدن كانت في الأعم الأغلب حروب على الموارد الزراعية سواء ا رض أو مصادر ا رواء ، أو طرق التجار ، دون التعرض للأمور الدينية ، كالمعابد وتماثيل الآلهة . لكن مع نرام ــ سين) حصل تطور خطير من استهداف الرموز الدينية كالمعابد ، لذلك من حزنا ن ستنتج ن الأكديين ميزوا في معاملتهم بين المدن في العراق القديم ، إذ اتبعوا سياسة الشدة وهدم الأسوار ، و خذ ا رهائن من المدن السومرية ، لضمان ولاء حكام المدن . وفي الوقت نفسه احتكر سرجون الأكدي) المناصب الإدارية العليا لموظفي أكد فقط[١٥] ، ما يدل على عدم ثقة بالسومريين سكان جنوب العراق القديم .

ثالثاً . الرأي الثالث الذي يرده الباحث حول نفي وجود السومريين ما ملخصه : لا يمكن أن نلمس جود اختلافات عرقيه او نثر بولوجية متميزة للسومريين ، وفصلهم عن الأكديين[١٦] .

والواقع انه لا يمكن الجزم مطلقاً بوجد عرق خالص ، لضرورة الاختلاط والتزاوج لاسيما في العراق القديم ، الذي مثل بوتقة انصهرت فيها العديد من الأقوام بدءاً من العصر الحجري الحديث ، وصولاً إلى الأقوام الوافدة كالأقواد ، الجزرية بأقدم هجراتها في الألف الخامس قبل الميلاد ، مروراً العيلاميين والكوتيين والاموريين ، وحتى ن وجد تميز عرقي ، فهو يعود بالضرورة إلى حقب سحيقة بالقدم تصل إلى الإلف السادس قبل الميلاد) لكننا لم نستطع التوصل لها إلى الآن ، وقد تساعد التنقيبات الأثرية لمواقع تعود لهذه الحقب للوصول إلى نتائج مقنعة ، أما الآن فلا يمكن الجزم بذلك . و عدم الوجود لا يدل على عدم الوجود .

. يمكن القول وكتسلسل منطقي للأحداث في تكوين السهل الرسوبي والأقوام القاطنة فيه : انه بعد ان اكتمل تشكيله نحو الألف السادس قبل الميلاد ، إذ تمثل مدينة اريدو أقدم استيطان فيه[١٧] .

ب . نزحت الأقوام ى السهل الرسوبي من منطقتين : الأولى من الشما ، وهي أق وام العصر الحجري الحديث ، ويمكن أن يكون السومريون من ضمنه . أما الأقوام الجزرية فقد نزحت إليه من الجنوب والغرب ، وبالتالي فقد حصلت حالة من الانصهار العرقي والثقافي بين الأقوام المختلفة سواء كانوا من الفراتيين الأوائل والسومريين والجزريين بموجاتهم الأولى منذ الألف الخامس قبل الميلا) وصعود . وهذا يفسر عدم وجود فوارق عرقيه سلالي) وانثربولوج ة في الهياكل العظم ة المكتشف ة بعد الألف الثالث قبل الميلا ، وبالتالي لا يمكن أن نعد ذلك دليلا حاسما على عدم وجود السومريين . وربما عند اكتشاف هياكل عظمية تعود إلى ا ف السادس ، الخامس والرابع قبل الميلا) سيحل بعض من هذه الفوارق .

ومن خلال المنطلق نفس ه يمكن أن نناقش الرأي الرابع الذي يستند في نفيه لوجود السومريين إلى أن الملك الأول في جدول الإثبات السومري الذي حكم في ريدو) قبل الطوفان كان اسمه الول) وهو اسم أكدي [١٨] .

وهنا مكن القول انه لا يمنع أن الأقوام الجزر ة والسومر ة والفراتيين الأوائل انصهروا في بوتقه واحده خلال الألفين الخامس والرابع قبل الميلاد . وبالتالي فمن غير المستبعد أن اسم هذا الملك يحمل أكثر من فرضيه :

- إما أن الاسم كان لشخص سومري ، وبفعل التأثر بالجز ريين سمي بهذا الاس ، وقد وجدت لذلك حالات مسجله في العراق القديم مثل تسمية الملوك الثلاثة الأواخر لسلالة اور الثالثة بأسماء جزر ة وه : امار ـ سين) و شو ـ سين) و وابي ـ سين) [١٩] .
- أو أن يكون اسماً لملك جزري حكم في محيطه المتعدد من الفراتيين الأوائل والسومريين والجزريين ، وهذا غير مستبعد نظرا لطبيعة الانصهار القومي بين الأجناس البشرية التي نزحت إلى السهل الرسوبي ، لاسيما بعد اكتمال تشكله في الألف السادس قبل الميلا .

وفي كلا الحالين ، فهذا لا يعد دليلاً على نفي وجود السومريين كقوم وجدوا في العر ق القدي .

رابع . من الأدلة على نفي وجود السومريين إن جل أسماء المدن والمواقع في العراق القديم ليست سومري [٢٠] ، بل تعود إلى أقوام يسمون الفراتيون الأوائل ، وهذا الرأي لا يصلح دليلا على نفي وجود السومريين ن السهل الرسوبي ، بعد اكتمال تشكله سكنه قوام ، يعرفون بالفرا ن ا وائل بحسب رأي الأستاذ لاندزبرجر ، الذين سبقوا السومريين و الأكديين في سكنى السهل الرسوبي [٢١] . ، هذا لا يمنع أنهم سكنوا فيه، ثم جاء إليهم السومر ز ، او أنهم

نزحوا من الجزء الشمالي من العراق القديم . وبالتالي فلا يعد هذا دليلاً على نفي وجود السومريين .

خامساً . من الآراء التي تنفي وجود السومريين : ورد أسماء أعلام أكديه في مدن يفترض أنها سومرية . مثال ذلك أن من بين (٢١) ملكا حكموا سلالة كيش بعد الطوفان [١٢]، فان أسماء الملوك السومريين هي (٨) فقد استدل بسببه على ما يتضح حالة الانصهار السومري الجزري منذ الألف الرابع قبل الميلاد الذي لم يجعل فوارق واضحة بين القوميين ، حتى أنهم تسموا بأسماء سومرية او أكدية وهذا نجد مصاديقه في تاريخ العراق القديم . فمثلاً ورد ان كودر ــ ماب وك) وهو قائد عيلامي قام باحتلال مدينة لارسا) ونصب احد أولاده ملكاً عليها وهو وردـ سين) الذي يعني بالأكدية خادم سين ، ثم نصب ابنه الثاني المسمى ريم ــ سين) ثور سين) [١٣] حاكماً على لارسا أيضا ، وذلك في بدايات الألف الثاني قبل الميلاد . فهل يجوز لنا القول على وفق لرأي المتقدم ، ان أبناء (كودر ماب وك) ليسا عيلاميين ، بسبب أن أسماءهم أكدية؟ فمسألة الأسماء لا تدل على هوية الشخص ، بل أن ملوك سومريين سمّوا أولادهم بأسماء جزرية كما مر سابقاً في أسماء شو ــ سين) و أبي ــ سين) ضمن سلالة أور الثالثة .

سادساً : الرأي

أن جل معلوماتنا عن ملوك عصر فجر السلالات ، الذين يفترض كونهم سومريين تأتي من خلال نصوص ملاحم الفت باللغة السومرية في العصر البابلي ، وليس في العصور السومرية المفترضة [١٤].

ومن ما يمكن طرح الأفكار الآتية :

. ليس دليلاً قاطعا أن يكون عدم وجود نصوص ملاحم الفت باللغة السومرية تعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد ، على عدم وجود قوم باسم السومريين ربما سبب عدم وجود مثل هذه النصوص ، قلة المدونات ، وصعوبة التدوين بالطريقة الصورية ، أو عدم عثور المنقبين على هذه الملاحم ، أو تعرضها للتلف بسبب المدة الزمنية الطويلة التي تفصلنا عنها .

بدأت الكتابة المسمارية صورية عامة بالطريقة الصورية التي تتطلب رسم صور الأشياء محاكيا شكلها الطبيعي ولو صفها الحقيقي أيضا [١٤]. وهذه الطريقة لم تستمر بعد أن تغير أسلوب كتابة هذه الصور ، إذ وجد الكتبة انه من الأسهل تدوير الصور تصبح مقلوبة على ظهوره ، واستمرت هذه الطريقة حتى (٢٥٠٠ ق . م) [١٥]. وبالتالي يمكن الاستنتاج إن طريقة

الكتابة المسمارية كانت من الصعوبة كي ا دون بها نصوص ملحميه طويلا ، لكن بعد تطور الكتابة المسمارية نحو الطريقتين الرمزية والمقطعي ة تمكن الكتبة من تدوين الملاحم والأساطير السومرية التي تحوي أسماء ملوك عصر فجر السلالات نحو الألف الثاني قبل الميلا ، فالإشكال في ذلك إذن عدم كفاءة نظام الكتابة المسم ري ، وعدم ملا ء، ته لتدوين نصوص سومريه طويل ، وليس عدم وجود السومريين .

سابعاً . كما ر ا ، ن الكتابة في مراحلها الأولى لم تكن محدده بالمنطقة المفترضة في جنو ي العراق ، إنما انتشرت في ما يعرف بالمنطقة الأكدية أثناء العصر الشبيه بالكتابي . وقد سبق أن ذكرنا ن السو ل الرسوبي صور خاص ة والعراق القديم ع وما عرف انصهار أكثر من قوم في بوتقة واحدة ، وقد خدم ذلك نظام الكتابة المسماريا ، وبغض النظر عمن اوجد هذا النظام سواء كانوا الفراتيون الأوائل أو السومر ن ، وبالتالي فلا يمكن أن يكون ذلك دليلاً على عدم وجود السومريين ، علماً أن صاحب الرأي نفسه يؤكد : أن الأكديين قاموا باقتباس الخط المسماري الذي ابتكره السومريون لتدوين النصوص ا كد ة[١٦] . وهنا يعترف بوجود السومريين كقوم ا لو سلمنا أن وجود كتابات مسمار ة في مراحل مبكرة في مناطق خارج بلاد سومر ، يدل على عدم وجود أقوام سومريا ل وجود كتابه سومر ة، فالأحرى أن ننسب الخط المسماري واختراعه إلى العيلاميين أيضا ، لان أقدم أنواع الكتابة وهي الكتابة الصورية ، انتقلت إلى مدينة شوشه عاصمة عيلا ، التي ظهر فيها خط صوري مشابه للخط العراقي لقديم مع اختلافات بسيطة ، في مدة مبكرة جداً بعد نحو ٠٠ ا عا) من اختراعه في العراق القديم[١٧] .

ثامناً . من الأدلة التي ور ت حول نفي وجود السومريين :

> إن الدراسة المعجمية للغة السومرية تبين وجود مجموعتين من المفردات ، الأولى تشمل مفردات سومر ة، والثانية تشمل عدداً كبيرا من الكلمات المستعارة من لغة غير سومريا[١٨] .

ونتساءل هنا : هل يمكن أن ننفي وجود الأقوام بسبب وجود مفردات لغة أخرى في كتاب ها ؟ فوجود مجاميع من المفردات الدخيلة في أي لغة لا يعني عدم وجود أهل هذه اللغة، وإذا كان كذلك، فماذا يدلل وجود مجموعة المفردات السومرية . على أن كل لغات العالم تتضمن المفردات الدخ لة كما لا يخفى بسبب الاختلاط والتفاعل[١٩]، ومثال على ذلك ما مبين في الجدول أدنا

French	Greek and Latin
Commence	intiate
Finish	conclude
royal	regal
age	Epach

ثامناً : أن اختلاف المقاطع الرمزية السومرية، التي كانت تستعمل للمعاني نفسها من منطقة أخرى في جنوب العراق القديم ، يمكن أن يكون دليلا على نفي وجود السومريين ، فمثلاً الفعل ضرب كان يعبر عنه في المناطق الجنوبية بالمقطعين الرمزيين (أي ــ خول) (E.HUL) . لكن يعبر عنه في المناطق الشمالية منه بالمقاطع الرمزية (ساك ــ كش) (SAG – GIS.R) [١٠].

وهذا ليس دليلاً حتمياً على نفي وجود السومريين ، فمن الوارد أن تأثر السومريين بحسب المناطق التي يسكنونها بمن جاورهم من الأقوام ، ما أدى إلى الاختلاف في كتابة صيغ هذه الأفعال ، فالمناطق الجنوبية من جنوب العراق القديم محاددة للعيلاميين ، والشمالية من نفس الجزء تكثر فيها الأقوام الجزرية

تاسعاً : أن هناك تأثير كدي على الكتابات السومرية [١١]. وهو أمر غير مستبعد نظراً لمجاورة السومريين لأقوام الجزرية بضمنها الأكديين منذ مدة طويلة في السهل الرسوبي ، ما أدى إلى هذا التأثير ، ولا يمكن أن يعد ذلك دليلاً على عدم وجود السومريين .

عاشراً : أن اللغة السومرية وضعها الأكديون قبل أن يتمكنوا من ابتكار وسيلة لتدوين اللغة الأكدية نفسها [١٢].

هنا يتبادر سؤال : ما هو الأصعب ، تدوين اللغة الأكدية، على الرغم من صعوبة تدوينها ، أم اختراع لغة جديدة قائمة بذاتها ثم تدوينها ؟ هنا لا يسع الباحث إلا القول إن هذا الرأي هو ليس سوى وجهة نظر خاصة ، لا يمكن القطع بصحتها . فالواجب إيراد مثال واحد لأقوام اخترعوا لغة جديدة لغرض التدوين ؛ ثم بعد ذلك دونوا بلغتهم الأصلية ، فعملية اختراع الأكديين لغة السومرية لغرض التدوين عملية أصعب بكثير من عملية تدوين اللغة الأكدية نفسها .

حادي عشر . ا را : هناك عدد كبير من المفردات والمقاطع ا ا مزية السومرية وضعت لأول مرة في الفترة من منتصف الألف الثاني إلى منتصف الألف الأول قبل الميلاد . أي بعد الاختفاء المفترض للسومريين بأكثر من خمسة قرون [٢٣] .

و الواقع أن نهاية الدور السيا ي للأقوام لا يدل على عدم فاعليتهم وتأثيرهم الحضاري بعد ذلك . وخير مثال على ذلك الآراميين الذين لم يشكلوا دولة قوية مركزية في العراق القديم ، لكنهم روا في الدولة الاخمينية فيما بعد ، حتى أصبحت لغتهم اللغة الرسمية للدولة الاخمينية ، التي استخدمها قبلهم الاشوريون في بعض الكتابات التذكارية والرسائل ، وصولاً إلى الدولة الكلدية [٢٤] .

ثاني عشر . من ضمن الآراء التي تنفي وجود السومريين : ان العصور البابلية هي الأهم في تاريخ اللغة السومرية ، و ن النصوص السومرية التي وصلتنا من الألف الثاني قبل الميلاد ليست استنساخات من نصوص سومريه أقدم بل هي الفت ببراعة من قبل الكتبة الأكديين [٢٥] .

هنا يمكن القول : انتهى دور السومريين السياسي بسقوط سلالة أ ور الثالثة نحو ٢٠٠٤ ق ، ، لكن هذا لا يعني انتهاء دورهم الحضاري و الثقافي ، فقد استمر الكتبة السومريون بالتأليف ، واستمرت السومرية لغة كتابه وتخاطب ، والدليل على ذلك النصوص ثنائية اللغة التي وصلتنا ، منها نص يتناول خلق الشمس والقمر [٢٦] ، الذي يعود لى العصر البابلي الحديث

ثالث عشر . ا أي آخر يقول : إن النصوص المسمارية لا تذكر اسم السومريين كقوم [٢٧] ، و ن كلمة سومري حيث ترد فأنها تدل على معنى كاتب سومري ، ولا تدل على سومري القوم ( ) [٢٨] . فإنها تدل على اللغة السومرية ، وليس العرق السومري ، وبالتالي فلا وجود للسومريين كعرق في العراق القديم

وهنا تساءل : هل تم اكتشاف وقراءة كافة الألواح المسمارية حتى نستطيع الحكم على عدم وجود ذكر للسومريين كقوم ؟ في وقت تعد اللغة هم مقومات وجود الشعوب . التي حفظت الكيان الحضاري لها مم، حتى بعد تعرضهم للضعف السياسي . وبالتالي فوجود اللغة يدل على وجود المتكلمين بها

رابع عشر يرد من ضمن الآراء : أن من الصعوبة بمكان تطابق العقائد الدينية بين قومين مختلفين مهما كانت قوة الصلات بينهم [٢٦]، وبالتالي يستبعد وجود السومريين كقوم لتطابق عقائدهم الدينية مع العقائد الدينية السومرية ، وعليه فالموجودون هم أكديون.

لكن من الثابت أن العقائد الدينية في أي زمان تتأثر بالبيئة التي يعيش فيها الأفراد ، وبالتالي فان التشابه بالعقائد الدينية بين السومريين والأكديين مصدره البيئة الواحدة التي عاشوا فيها ، علماً أن هذا التطابق بين السومريين والأكديين لم يكن تطابقاً كلياً فمثلاً نجد ان نرام سين) قام بتدمير أقدس معبد سومري ، وهو معبد الآلهة انليل المسمى ايكور) في أقدس مدينة هي نفر [٢٧]. كما اخذ الإله القومي للبابليين الجزريين) مردوخ مكانة الإله القومي للسومريين انليل ، في قصة الخليقة البابلية [٢٨]. فلو كانت العقائد الدينية متطابقة لما توصلنا إلى هكذا تباينات.

خامس عشر . ورأي آخر في نفي وجود السومريين : انه من خصائص حضارة العراق القديم إن كل بناية دينية تشيد في العصور التاريخية يتوجب أن تحمل اسماً باللغة السومرية ، على هذا الأساس فمن غير المعقول أن يشير أكديون بإطلاق تسميات سومريه على الأبنية الدينية ، بعد زوال الحكم السياسي للسومريين ، لذلك فلا وجود للسومريين كقوم [٢٩].

لكن ما المانع أن تكون اللغة السومرية لغة العراق القديم الدينية، وان السومريين بحكم أصالتهم في الحضارة وسبقهم للأكديين وضعوا قواعد الديانة العراقية القديمة وأسسها ، وبالتالي استمرت لغتهم لغة دينية في العراق القديم ، حتى بعد زوال كيانهم السياسي .

من الآراء التي يسوقها الباحث في نفي وجود السومريين ، أن لقب ملك سومر وأكد الذي استعمله ملك الوركاء اوتو ـ حيكال) أول مرة ليس دليلا على وجود قوم سومريين [٣٠]. وبما ان مفردة سومر حيث ما وردت في النصوص المسمارية تدل على لسان أو لغة) وليس على شعب او قوم [٣١]. فيتم بذلك نفي وجود السومريين .

لكن وللإجابة على هذا الرأي هل من المنطقي أن يطلق ملك على نفسه لقب ملك لغة سومر وارض أكد ؟ وما علاقة اللسان السومري بأرض وشعب كما ؟ لذا فان جواب المنطقي هو ملك بلاد سومر و كما) بلاد سومر معروفة ومحددة بحسب الأثريين وهي تمتد من مدينة نفر) إلى الخليج العربي جنوباً وأشهر مدنها الوركاء ولارسا وايسن وادب . وشروباك الى الشمال من بلاد سومر وأشهر مدنها أكد وكوثي وسبار وبابل وبورسيبا ومرد [٩] .

رأي آخر يسوقه الباحث في هذا المجال فيقول : ن اللغة الايبلا ة المدونة نسبة إلى مدينة ايبلا تل مروح شمال سوريا) يعود ما نسبته ٠ % من مفردا ها إلى اللغة السومرية ، وبسبب بعد مدينة ايبلا جغرافياً عن بلاد سومر وعدم وجود سومريين فيها ، وانتماء الايبلائيين إلى القبائل الجزرية ، فان اللغة السومرية هي اختراع جزري اكدي [١٠].

مرة أخرى نؤكد إن تشابه مفردات لغوية بين الأقوام لا يدل بالضرورة على نفي وجود حد هذه الأقوا ، وتاريخ العراق القديم يؤكد ن العلاقات بين بلاد سومر وسوريا القديمة تعود إلى مراحل مبكرة جداً من التاريخ ، وخير دليل على ذلك ما ورد في ملحمة كلكامش من رحلة سيد الوركاء نحو ٢٦٥٠ ق) نحو غابات الارز في جبال لبنان [١١]. وعليه يكون التأثير اللغوي السومري على اللغة الايبلائية جاء بفعل التأثير الحضاري للسومريين ، كونهم أصحاب حضارة أصيلة أخذت منهم المناطق المجاورة كبلاد عيلام وبلاد الأناضول وسوريا القديمة .

وقد ازداد التدوين باللغة الأكدية مع بروز دور الجزريين السياسي مع الدولة الأكدية ٢٣٧١ - ٢٢٣٠ ق) [١٢] لماذا ازدا ؟ وما مدى ارتباطه الأكديين ؟ فلو كانت اللغة السومرية لغة من اختراع الأكديين؛ لماذا تأخرت فجأة أمام اللغة الأكدية مع قيام الدولة الأكدية؟ ألا يدل ذلك على أن السومريين أصحاب النفوذ السياسي في العراق القديم قدموا لغتهم في الكتابة و تخاطب ، ولكن مع تضاؤل نفوذهم السياسي ، وانتقال السلطة إلى الأكديين تراجعت اللغة السومرية أمام اللغة الأكدية ، كما هو حال بقية اللغات في الحالات المتشابهة، عليه لابد من وجود قومين مختلفين بلغتين مختلفتين هما السومريين والأكد ن [١٣]. بل لماذا لم يرد نص صريح حول اختراع الأكديين للغة السومرية؟ مع العلم أن آلاف النصوص المسمارية وصلت إلين . بل لماذا قام الكوتيون أثناء هجومهم على جنوب ي العراق نحو ٢٣٠ ق) بالإبقاء على سلالة لكش الثانية تمتع بما يشبه الحكم الذاتي ، مع تحط م وتخريب أكد بقسوة ووحشية [١٤]. فلو كانت المد ن تعودان إلى الأكديين، فلماذا هذا التمايز بالمعاملة؟ علماً إن الوركاء المدينة السومرية تمتعت بالميزة نفس ها من الاستقلال والحكم الذاتي [١٥]، ألا يدل ذلك على وجود قومين مختلفين تعرضا لمعاملتين مختلفتين من الكوتيين .

بصورة عامة فهناك ملاحظات حول هوية السومر يين كقوم نوردها كالآتي :

* إذا كان اختراع الكتابة السومرية اختراع أكدي ، فلماذا لم نجد خلال العصر الشبيه بالكتابي ٣٥٠٠ ق ، نماذج لكتابات سومر ة في مناطق الجزريين الأخرى ، سواء الجزيرة

العربية و بلاد الشام؟ وهي مناطق تواجد فيها الجزريون منذ عصور قديمة . ولماذا توصل الجزريون في العراق القديم وحده لهذا الاختراع المهم ، دون غيرهم من الجزريين؟

* ذا كان سكان العراق منذ أقدم العصور هم الجزريون فأين ذهب سكان العصر الحجري الحديث؟ وهم سكنة تل حلف وسامراء وتل الصوان . ولماذا لا يكونوا هم من نط وا الحضارة ا عراقية القديمة؟ وبالتالي كانت الكتابة المسمارية باللغة السومرية هي نتاجهم وليس نتاج الأكديين .

* هناك نظرية في اختراع الكتابة لباحثة الأمريكية دينس شماندر ، ملخصها إن اختراع الكتابة يعود إلى الألف السابع قبل الميلا ، وتحديداً في قرية جرمو) قرب جمج مال في شمي العراق ، وقد توصلت ذلك من خلال دراستها لقطع طينية صغيره بحجوم هندسية مختلفة دعيت (okensT) [٣] ، عليه إن اختراع الكتابة يعود لأقوام ليسوا من الجزريين ، وبحسب نظرية أصل السومريين التي تنص على أنهم سكان العصر الحجري الحديث الذين نزحوا من شمال العراق نحو جنوه بعد اكتمال تشكل السهل الرسوبي ، لذا لا يمكن إلغاء وجود السومريين كقوم ، أو أن الكتابة السومرية هي اختراع أكدي ، ان اختراع الكتابة يعود إلى أقوام أقدم من الأكديين .

* ورد ذكر لنشاط التجاري للسومريين ومبادلاتهم التجارية مع مناطق شمال غربي إيران منذ الألف الثالث قبل الميلاد ، تدل النصوص السومرية القديمة على ذلك مثل ملحمة كلكامش واينمركار وحاكم ارتا [٤] ، ان وجود أية مفردة في اللغة السومرية من لغات أخرى غيرها سواء كانت أكدية أو غيرها لا تعد دليلاً على عدم وجود السومريين [٥] ، بل يدل على نشاط ، ومري تجاري فاعل، و ن ختلاطهم بأقوام أخرى أدى إلى دخول مفردات من لغات أخرى في لغتهم .

* ذا كان الهدف من وراء اختراع اللغة السومرية هو ا تابة لغة أسهل بالتدوين من اللغة الأكدي ، فلم ذا استمر التدوين باللغة السومري ؟ بعد تمكن الأكديين التدوين بلغتهم ا . . وانتفاء الحاجة للغة السومري ، وبالتالي فلا نجد تفسير ا لاستمرار استعمال اللغة السومرية حتى أخريات الحضارة العراقية القديمة إلا ا ها لغة قوم كانوا أساس الحضارة في العراق القدي ، ومنهم اقتبس الأكديون نظام الكتابة المسماري .

لذا يمكن القول نه بعد اكتمال تش كل السهل الرسوبي في الألف السادس قبل الميلاد نحو ٥٠٠٠ ق . [٦] ، نزحت أقوام شمي العراق أقوام العصر الحجري الحديث ، ويمكن أن يكون الفراتيون الأوائل والسومريون منهم ، أفادوا من بدايات نظام التدوين الكتابي الذي

بدأ في قرية جرمو) بحسب نظرية دنيس شماندن) سالفة الذكر ، فتوصلوا إلى الكتابة المسمارية باللغة السومرية مع اقتباس مفردات من الفراتيين الأوائل والأقوام التي سكنت فيما بعد في السهل الرسوبي ، و نزحت ليه ، مثل موجات الجزريين الأولى ، الذين انتقلت إليهم الكتابة المسمارية فيما بعد ، وأضافوا إليها . وقد احتاج هذا إلى دليل ؛ والدليل من معظم الآراء المطروحة في تاريخ العراق القديم لاسيما التي تتعلق بأصل السومريين ؛ هي فرضيات يحتمل بطلانها أو صحتها على سبيل المثال نورد نظرية الأستاذ بهنام ابو الصوف) حول أصل السومريين ، ملخصها : إن الخليج العربي في العصور القديمة كان منطقة جافة مسكونا بأقوام منها السومريين ، وبفعل ذوبان الثلوج في أخريات العصور الجليدية ، ارتفعت مياه المحيط الهندي واجتازت مضيق هرمز ، واكتسحت منطقة الخليج العربي لم يجد السكان فيه مفراً سوى النزوح شمالاً إلى جنوبي العراق القديم ، أو الالتجاء إلى المناطق العالية مثل جزر البحرين دلمون ، وبالتالي فهو يفسر بذلك قصة الطوفان السومري ، وقدسية دلمون) عند السومريين . وعلى هذا الأساس ، فكل الآراء المطروحة هي وجهات نظر ، ليست حقائق قطعية . عليه فان التشكيك بوجود السومريين وجهة نظر تضاف لما سبقها .

الهوامش

١) نائل حنون، حقيقة السومريين، دمشق ، دار الزمان ٢٠٠٧ ، ص ٢٩ .

٢) جورج رو، العراق القديم، ترجمة : حسين علوان، بغداد ١٩٨٤ ، ص ٢٩ .

٣) طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ط ٢ ، بغداد ١٩٨٦ م ، ص ٢١ .

٤) طه باقر، مقدمة في أدب العراق القديم، بغداد ١٩٧٦ ص ٢١ .

٥) المصدر نفسه ص ٢٠ .

٦) مؤيد سعيد الفخار منذ عصر فجر السلالات حتى نهاية العصر البابلي القديم ، حضارة العراق، بغداد، ١٩٨٥ ، ص ٣٧ ـ ٩ .

٧) المصدر نفسه، ص ٤٠ .

٨) عادل ناجي الأختام الاسطوانية ، حضارة العراق ، بغداد ١٩٨٥ ، ص ٢٩ .

٩) سيتون لويد، أثار بلاد الرافدين، ترجمة : سامي سعيد الأحمد، بغداد، بدون ص ٤٦ .

١٠) عادل ناجي، الأختام الاسطوانية، ص ٢٩ .

١١) نائل حنون، حقيقة السومريين، ص ٤٦ .

٢) المصدر نفسه، ص ٩٠ .

٣) جورج رو، العراق القديم، ص ٢٢٠ .

٤) فاضل عبد الواحد علي، سلالة ايسن الثانية ، العراق في التاريخ ، بغداد ٩٨٣ ، ص ١٠٨.

٥) هاري ساكز، عظمة بابل، ترجمة : عامر سليمان، بغداد ٩٧٩ ، ص ٦٩.

٦) نائل حنون، حقيقة السومريين، ص ٢٩.

٧) احمد سوسة، الساميون والسومريون، بغداد ٩٨٠ ، ص ١٩.

٨) نائل حنون، حقيقة السومريين، ص ٣٩.

٩) طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديم ص ٣٨٩.

١٠) نائل حنون، حقيقة السومريين، ص ٣٠.

١١) المصدر نفسه، ص ٢٨.

١٢) كريمر، السومريون، ترجمة : فيصل الوائلي، الكويت ٩٧٦ ، ص ٤٧٤.

١٣) جورج رو، العراق القديم، ص ٢٥٣.

١٤) نائل حنون، المعجم المسماري، بغداد ٢٠٠١ ، ص ٢٨.

١٥) كريمر، السومريون، ص ٤٣٧.

١٦) نائل حنون ، المعجم المسماري، ص ٢٩.

١٧) بهيجه خليل اسماعيل، الكتابة ، حضارة العراق، ج١، بغداد ٩٨٥ ، ص ٢٢٥.

١٨) نائل حنون، حقيقة السومريين، ص ٢١٠ .

(29) Takur Bharati, Linguistics simplified semantics, India 2001, p. 29.

٢٠) نائل حنون، حقيقة السومريين، ص ٣١.

٢١) المصدر نفسه، ص ٢١٠ .

٢٢) المصدر نفسه، ص ٣٢.

٢٣) المصدر نفسه، ص ٣٢.

٢٤) سامي سعيد الاحمد ورضا جواد الهاشمي،، تاريخ إيران والأناضول القديم، بغداد، ص ١١٢.

٢٥) نائل حنون، حقيقة السومريين، ص ٣٤ ــ ٣٥.

٢٦) الكسندر هايدل، الخليقة البابلية، ترجمة : ثامر مهدي، بغداد ٢٠٠١ ، ص ٩٥.

٢٧) نائل حنون، حقيقة السومريين، ص ٢٦٠ .

٢٨) المصدر نفسه ص ٣٦.

٢٩) المصدر نفسه، ص ٤٠.

٣٠) هاري ساكز، عظمة بابل، ص ٧١.

٣١) الكسندر هايدل، الخليقة البابلية، ص ١٥ ــ ١٦.

٣٢) نائل حنون، حقيقة السومريين، ص ٤٠.

٣٣) نائل حنون، المعجم المسماري، ص ١٩.

٣٤) فاضل عبد الواحد ، سومر أسطوره وملحمة، بغداد ٢٠٠١ ، ص ١٥٨.

٣٥) نائل حنون، حقيقة السومريين، ص ٤١.

٣٦) طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ص ٢٠٧ ــ ٢٠٨.

٣٧) نائل حنون، حقيقة السومريين، ص ٢٤ ــ ٢٥.

٣٨) المصدر نفسه، ص ٣٦.

٣٩) طه باقر، مقدمة في أدب العراق القديم ، ص ١١ ـ ١٢.

(50) Jeremy Black and others, The literature of Ancient summer, Oxford University press, 2004, P.XV.

٥١) نائل حنون، حقيقة السومريين، ص ٤٦.

٥٢) نائل حنون، ملحمة كلكامش ، دمشق ٢٠٠٦ ، ص ٤١.

٥٣) طه باقر، مقدمة في أدب العراق القديم، ص ٣٨.

٥٤) جورج رو، العراق القديم، ص ٢٣ ؛ كريمر، السومريون، ص ١٨.

٥٥) طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ص ٧٦.